

اللغة والهجوع

لا حاجة بنا إلى القول بأنه لا لغة بلا مجتمع ، كما أنه لا وجود لمجتمع بغير لغة ، ومن نافلة القول أيضاً أن تفرّز الصعوبات التي تعترض سبيل الباحثين وذوي الاختصاص ، لمعرفة تاريخ ومكان وكيفية نشوء "اللغة الأولى" لبني البشر. فهذا ليس قصداً ولا مجال لذلك في عجالتنا هذه ، متغاضين عن أهواء أولئك الذين اهتموا بما جاء في التوراة ، (سفر التكوين ، الإصحاح الحادي عشر):

١- وكانت الأرض كلها لغةً واحدةً وكلاماً واحداً..
٢- وكان أنهم لما رحلوا من المشرق وجدوا بقعةً في أرض شنعار فأقاموا هناك.

٣- وقالوا تعالوا نبني لنا مدينةً وبرجاً رأسه إلى السماء...

٤- فنزل الرب لينظر المدينة والبرج..

٥- وقال الرب هاهم شعبٌ واحد ولجميعهم لغة واحدة..

٦- هلّم نهبط ونبلبل هناك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعضٍ...

٧- فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض كلها..

٨- ولذلك سميت بابل لأنّ الرب هناك بلّبل لغة الأرض كلّها.."

لا تعليق لنا على ما جاء أعلاه!!.. مع العلم بأن اسم بابل يعني في الأكديّة- البابلية والآرامية لاحقاً "باب إيلو/ باب إيل" (باب إيل = باب الله) وإيل كما نعلم هو رب الأرباب في الهلال الخصيب ، في إحدى الجُعب ، ومن هنا الأسماء المركبة: اسماعيل ، جبرائيل ، عزرائيل ، اسرافيل ، الخ... ولدينا في الضاحية الجنوبية لدمشق بلدة "بيتلا" بمعنى (باب الله).

لم يكن هدفنا من هذه اللقطة الاشتقاقية لاسم بابل ، سوى التمهيد لها سنلاحظه لاحقاً من تشابهٍ جليّ واضح ، بين اللغة العربية ، كما أدركناها في الأدب الجاهلي وفي الخطاب القرآني فيما بعد ، إضافةً لما نجده في مختلف وثائق الحضارة اليمينية والنقوش القديمة (ثموديّة ، لحبانيّة ، صفائيّة ، وقال البعض صفويّة) وجميعها بالقلم المسند ، أي بالتراث اللغوي لشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ؛ هذا من ناحية ، وبين لغات بلاد الرافدين والشام ووادي النيل ، إضافةً لشمال إفريقية ، تلك اللغات واللهجات التي أطلق عليها البعض اسم اللغات "الحامية- السامية".

أعلن نفّر أن السريانية هي لغة "الإنسان الأول" واحتجّ آخرون على ذلك زاعمين أنها العربية -مع العلم بأنه لا كيان لـ "عبرية قديمة" خارج دائرة اللغتين الكنعانية والآرامية ، وأكد آخرون أنها العربية ؛ بل شطت مخيلة هذا الفريق أو ذاك ، عندما زعموا أن لغة أهل الجتّة هي هذه أو تلك!!

غنيّ عن البيان أن شتى هذه الدعاوى لا علاقة لها بمنطق الأمور ، وتدحضها مختلف الدراسات اللغوية المقارنة. ولا مجال لنا للاستغراق في الحديث حول ذلك. ولكن لا بأس من ذكر بعض هذه الدراسات ، إذ من البديهي أن يطمح البعض إلى متابعة هذه النقطة أو تلك ، وهذا أمر مفهوم.

قال البعض ، إن الإشارات والرموز التي طلّت الوسيلة الوحيدة للتفاهم لدى الجماعات البدائية ، حتى مطلع قرننا هذا ، (مجاهل أفيانوسية وإفريقية الخ...) ، والتي نلاحظها في الطفل قبل أن يتعلم الكلام ، تعطينا فكرة تقريبية عن وسيلة التفاهم الأولى لدى الكائنات البدائية ، وبعد الإشارات هذه جاءت الأصوات والكلمات: أحادية الصوت أو ثنائيته الخ... ثم كانت اللغة ؛ والحالة هذه ، فاللغة أصلاً هي

العربية

"لغة وكتابة"



د. محمد محفل

رئيس تحرير

مجلة دراسات تاريخية - جامعة دمشق

عضو مجمع اللغة العربية (دمشق)

الجمهورية العربية السورية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد محفل ، العربية: لغة وكتابة. - دورية كان التاريخية. - العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠. ص ٤١ - ٤٥.

(www.historicalkan.co.nr)



اسم "أمريكة اللاتينية" على القسم الجنوبي من القارة الأمريكية ، وما قبل عن الشعوب الناطقة بالاسبانية والبرتغالية ينطبق على بعض الأقوام الأفريقية والآسيوية التي اعتمدت اللغة الفرنسية أو الانكليزية لغة رائج لها ، مع احتفاظها أحياناً (كالهند مثلاً) بلهجتها القومية .

تنسب لغتنا "العربية الفصحى" إلى تلك المجموعة اللغوية ، التي أُطلق عليها تجاوزاً اسم "اللغات السامية" . وهي اللغات واللهجات التي تكوّنت في مختلف أصقاع وطننا العربي القديم اعتباراً من الألف الرابع (ق.م). وأول من نادى بالنظرية السامية بدءاً من عام ١٧٨١ ، الباحث النمساوي شلوتسر معتمداً -لأسباب سياسية/ كهنوتية- على ماجاء في (سفر التكوين ، الإصحاح العاشر) ، ومن يقرأ هذا الإصحاح يلاحظ مباشرة أن كاتب النصّ يُقسّم الشعوب والأقوام لاعتبارات سياسية ، لاسيّما موقفها من أهل التوراة ، ومن الأمثلة على ذلك ، أنهم أخرجوا الكنعانيين من دائرة "الشجرة السامية" ؛ علماً أن مختلف الدراسات المقارنة قد أظهرت الصلات الجوهرية والوشائج المطلقة ، التي تشدّ الكنعانية إلى غيرها من لغات مشرقنا العربي القديم . ثم جاء بعد شلوتسر من عمل على ترويح هذه التسمية وفي مقدمتهم العالم الفرنسي (ارنست رنان) ، بل راح "يفلسفها" عرقياً ، خدمة للمدرسة الاستعمارية الفرنسية في القرن التاسع عشر .

نحن نرفض جازمين نظرية "التسمية السامية" ، لأسباب علمية محضة ، ولدوافع سياسية وقومية :

أولاً: فمن الناحية العلمية ، دحضت مختلف الدراسات العرقية والإنسانية (انثروبولوجية) نظرية وحدة السلالة أو الأصل MONOGENISME/ MONOGENISM بمعنى أن مختلف أفراد شعب ما ينحدرون من شيخ واحد^(٣) .

ثانياً: التسمية ذات أصل توراتي -كما ذكرنا أعلاه- كما أن الاستشراق الغربي قد "ابتدعها" وروجها ، لأسباب سياسية/ مذهبية ، لم تعد خافية على أحد ، وذلك في أوج اندفاع الاستعمار الغربي ، وقبل قرن تقريباً من انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول . كما أننا اكتونا كافيّاً برعونة سلاح: سامية/ لاسامية ، وإضافة لهذا وذاك ، لا نجد أثراً لهذه التسمية في مؤلفات علمائنا وشيوخنا الأوائل ؛ وما نقرّه هنا ، قد نبّهنا إليه منذ ربع قرن تقريباً في المقدمة التاريخية لكتابنا (المدخل إلى اللغة الآرامية) ، المقرّر في جامعة دمشق ، والمعمول به حتى يومنا هذا ، إذ قلنا أن المهمة ملقاة على عاتق الباحثين العرب المعاصرين لإيجاد بديلٍ للتسمية التوراتية... وبدخل الموضوع في باب "السهل الممتنع" لانتشار هذا الخطأ الشائع في الأوساط الجامعية ، عربياً ودولياً .

وقد سبق أن انتبه لإيهام التسمية بعض الباحثين العرب ، لاسيّما الأستاذين محمد عزة دروزة وجواد علي ، وقد لخصّ هذا الأخير الموضوع كما يلي : "... ولعلني لا أكون مخطئاً أو مبالغاً إذا قلت إن الوقت قد حان لاستبدال مصطلح (سامي) و(سامية) بـ(عربي) و(عربية)... ولما كان العلماء قديماً قد أطلقوا على هذه الأرض التي ظهرت فيها شعوب كثيرة ولغات عديدة اسم (جزيرة العرب) أو (شبه جزيرة العرب) غير مراعين في ذلك تعداد المواضع أو اللغات واللهجات أو القبائل ، ولا تاريخ ظهور لفظة (العرب) إلى عالم الوجود ، جاز لنا بل وجب علينا -على ما أرى- أن نستبدل مصطلح (السامية) بمصطلح (العربية) ، فنكون بذلك قد لاحظنا عاملين مهمّين: عامل القرابة اللغوية والأصل اللغوي ، وعامل وحدة المكان.. وإذا وافقنا على إقرار

أصوات وليست كلمات ، والكلمة صوتٌ يرمز إلى معنى ، وكتابة الكلمة رسمٌ يرمز إلى هذا الصوت ، إذا فالصوت هو الأصل . جاء في القاموس المحيط (الفيروز آبادي): "واللغة أصواتٌ يعبر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم" . ويضيف ابن منظور في مادة "لغا": "... واللغة ، اللسن ، وحدها أنها أصواتٌ يعبر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم..." .

ونلخصّ فقرتنا هذه بما قاله (الأستاذ أحمد عبد الرحيم السائح): "... وقد يصعب على الباحث معرفة متى وأين وكيف بدأت اللغة ، إلا أننا لا نعدو الصواب ، إذا قلنا: إنها بدأت عندما تكونت أول جماعة إنسانية في هذا الوجود ، ولا نعدو الصواب أيضاً إذا قلنا: إن الجماعة الإنسانية الأولى -أيأ كان طابعها- عندما تكونت صحبت معها مشاكلها الخاصة ، الناتجة عن علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، والناتجة عن علاقة الإنسان بالبيئة والطبيعة .

وفي سبيل البحث عن حل لتلك المشاكل الجديدة في نوعها ، تولّد النشاط الإنساني في استخدام الصوت ، لتكوين ألفاظ لغوية ، بدائية الطابع ، والإنصات لتلك الأصوات ، بما يتبعه من مسلك ذهني لفهم مدلولها اللفظي عن طريق الأذن . تجسّد هذا النشاط الإنساني المتميّز من كائنات الطبيعة الأخرى ، في صيحات موسيقية ، تومي بهمان سحرية ، تختلف في دلائلها باختلاف موسيقاها.. بذلك تكوّن العنصر الأساسي للبيئة الثقافية الخاصة بالإنسان وحده.. وليست على هذا الأساس ، البيئة التي يحيا فيها الإنسان ، يعمل ويبحث مادية فقط ، بل ثقافية كذلك ، فأفعال الإنسان وكيفية أدائه لها ، لا تتوقف على التكوين العضوي لجسده فقط ، بل البيئة والإنسان يتأثران كذلك بمؤثرات تراثه الثقافي المنبث في التقاليد والنظم الاجتماعية والعادات والأهداف والمعتقدات التي تحملها الألفاظ اللغوية . في طيها وتوحي بها .

العربية وانتسابها اللغوي

من الأمور المقررة حالياً في الدراسات الجامعية والأكاديمية -والخاصة بأصل الشعوب وألسنها ، أنه لا يمكن أن نقيم علاقة مطلقة بين الأصل العرقي لشعب ما ، وبين اللغة التي ينطق بها ، ويمكننا أن نتيقن من ذلك ، بدلائل وشواهد قديمة وحديثة ، إذ نجد أقواماً وشعوباً تهجر ألسنتها الأصلية ، لمصلحة ألسن أقوام أخرى ، لأسباب سياسية أو اقتصادية أو دينية الخ.... فمثلاً اللغة الحورية اندثرت في سورية ، بعد زوال سلطان الدولة الميتانية ، في نهاية القرن الرابع عشر (ق.م) ، لمصلحة لغة السكان المحليين . الكنعانية فالآرامية . وكذلك الفلستينيون^(١) ، وهم من أقوام شعوب البحر^(٢) ، فبعد استقرارهم على الشريط الكنعاني الجنوبي ، هجروا لغتهم لمصلحة الكنعانية ، وكذلك أولئك الذين أطلقوا عليهم اسم الاسرائيليين القدماء فاليهود فيما بعد ، منذ تسللهم إلى فلسطين ، بعد القرن الثاني عشر (ق.م) ومروراً بالسبي الأشوري (٧٢١ ق.م) فالبابلي بهرحلتيه (٥٨٦/٥٩٧ ق.م) وانتهاء بتشريدهم النهائي على يد الرومان (عام ١٣٥م).... أما بالنسبة للآزمنة الحديثة والمعاصرة ، فالشواهد على ذلك وافرة متنوعة: فالأقوام والشعوب التي تنطلق اليوم بالإسبانية والبرتغالية في مختلف أنحاء أمريكا الجنوبية ، لا حصر لأصولها العرقية ، ونحن نعلم أن الاسبانيين والبرتغاليين قد شرعوا في استعمار العالم الجديد- لاسيّما القسم الجنوبي منه- منذ مطلع القرن السادس عشر .

وشاع استعمال هاتين اللغتين ، ذات الأصل اللاتيني ، بين سكان أمريكا الجنوبية ، إلى درجة كبيرة ، مما جعل البعض يطلق

هذا الاصطلاح، نكون قد تقربنا نحو العلم، وابتعدنا عن الأساطير، أسطورة انحدر الساميين من صلب رجل هو سام، وحري بالعلم أن يبني أحكامه على حقائق علمية، وأن يبتعد عن القصص والأساطير". وغني عن البيان، أنه لا يمكن تمييز أولئك "الساميين" عن غيرهم من أقوام وطننا العربي القديم، استناداً إلى ماهية العرق البشري فقط، إذ أن هؤلاء قد امتزجوا، منذ الألف الرابع (ق.م)؛ بسواهم من الأقوام المنحدرة من جبال زاغروس أو المتدفقة من بلاد الأناضول أو الوافدة من جزر الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط: من سومريين^(٣) ووغوتيين^(٤) وحثيين^(٥) وكاشيين^(٦) وحموريين-ميتانيين^(٧) وفلسطينيين^(٨) وفرس أخمينيين^(٩) وإغريق ولاتين^(١٠) وغيرهم. ومع أن أولئك الأقوام قد نطقوا بألسن مغايرة لما كان سائداً في ربوعنا، فلم يتمكنوا من فرض لغاتهم على أهل البلاد، فظلت محدودة في أوساطهم لتندثر بزوال سلطانهم السياسي.

وقد أظهرت شتى الدراسات المقارنة الخاصة بأصول السلالات البشرية (الانثولوجية)، أن عملية تمازج الشعوب لم تنقطع منذ عصور ما قبل التاريخ، من جراء الهجرات البشرية المختلفة، مما أدى إلى اختلاط دماء شتى الشعوب، وينطبق هذا الأمر على وطننا العربي القديم كما ذكرنا أعلاه.

ولا ينبثق اختلاف الأمم في التفكير والسلوك عن نوعيات عرقية مطلقة، بل يتحدد ذلك بالشروط والظروف الاقتصادية-السياسية والاجتماعية لشعب ما، إضافة للعوامل الجغرافية التي تؤمن شروطاً مناخية معينة، لا يُتكر دورها في هذا المضمار. وعندما نشير إلى جنس ما، فلا يخطر على بالنا صفاء عرقه، بل نقصد بذلك تلك الصفات التي تميز حضارته وثقافته في مختلف الميادين، على مر الأيام والسنين، وأهم حقل تشع فيه الخصائص المشتركة لأمة من الأمم، هو حقل اللغة، ويبدو هذا الأمر جلياً واضحاً في لغات ولهجات وطننا العربي عبر العصور. واليك أهم خواص وميزات تلك الألسن، في بعض مركباتها، وأحوالها واختلافاتها عن غيرها من اللغات:

أ- اشتقاق أغلبية المفردات من جذر ثلاثي، ولذلك أطلق علماء اللغة عليها صفة "ثلاثية الجذر" TRILITERE / TRILITERAL ونعلم أن المشتق ومصدره، في لغتنا العربية وأخواتها، يتفقان في الحروف الأصلية وترتيبها، فنقول: "نَصَرَ وناصر ومنصور ومنتصر وانتصر الخ.. وكتب وكتب وكتابة ومكتوب ومكتبة وتكتب الخ.. وتفق واستفق والناقفة والتفقة والمنفاق الخ..." نلاحظ أنه في مختلف المفردات المشتقة من (نَصَرَ)، أن ترتيب الحروف ثابت (ن / فاء الفعل، ص / عين الفعل، ر / لامه)، وكذلك بالنسبة ل (كَتَبَ: ك، ت، ب) وأيضاً ل (تَفَقَّقَ: ن، ف، ق).

ونعلم أيضاً أنه في بعض المشتقات يحصل اتفاق في الحروف الأصلية، دون ترتيبها، مع تناسب في المعنى، وذلك هو الاشتقاق الكبير (القلب). والاشتقاق في لغتنا العربية وأخواتها هو على ثلاثة أشكال: الاشتقاق الصغير، وهو اشتقاق كلمة من جذر بشرط أن يكون بين المفردتين تناسب في اللفظ والمعنى وترتيب الحروف، مع تغاير في الصيغة، مثل: كَتَبَ، كتابة، مكتوب الخ.. ثم لدينا الاشتقاق الكبير، حيث نجد تناسباً في اللفظ والمعنى دون ترتيب الحروف، مثل جَدَبَ و جَبَدَ، طاف و طفا، جَدَلَ و جَلَدَ الخ... وقالوا أيضاً: "القلب" كما ذكرنا. ويأتينا بعد ذلك الاشتقاق الأكبر وهو "الإبدال" حيث نجد بين لفظين تناسباً في المعنى ومخارج الحروف دون تناسب في اللفظ،

نحو: تَفَقَّقَ وَتَهَقَّقَ، ضَمَّ (ضَمَمَ) وَضَمَدَ، رَصَّ (رَصَصَ) وَرَصَفَ، رَجَّ (رَجَجَ) وَرَجَفَ، الخ.. هذا، إضافة إلى الاشتقاق الكبار، وهو النحت، وهو أن تختصر من كلمتين فأكثر كلمة واحدة، ولا يُشترط فيها حفظ الكلمات بتامها، ولا يؤخذ أحياناً من كل الكلمات كما أنه ليس من الضروري موافقة الحركات والسكنات، ولكن لابد من مراعاة ترتيب الحروف. والنحت عند جمهور العلماء على أربعة أشكال:

فعلي، نحو: بَسْمَل (إذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم)، حَوَقَلَ (لا حول ولا قوة إلا بالله)، حَمَدَلَ (الحمد لله)، سَمَعَلَ (السلام عليكم)، حَسَبَلَ (حسبي الله)، جَفَقَلَ (جعلني الله فداك). الخ... والوصفي نحو: الصلدم بمعنى الصلد، وهو الأسد أيضاً، والاسمي، نحو الجلمود، بمعنى (الصخر القاسي، من جلد وجمد) والنسي، وهو أن نشق من منسوب مدينتين أو بلدين أو شخصين منسوباً واحداً، نحو عبدلي (نسبة إلى عبد اللات) وعبدري (من عبد الدار) وطبرخزي (من طبرستان وخوارزم)... الخ. ولكل ذلك أصوله القياسية لدى جمهور العلماء. وعندما نقع في العربية على كلمة يتجاوز عدد حروفها الصامتة ثلاثة حروف أصلية، فعلياً أن نتأكد أنها ليست دخيلة وحينئذ نبحث عن أصولها الاشتقاقية. هذا في لغتنا العربية وكذلك في أغلبية أخواتها القديمة.

ب- انعدام الحياد في لغتنا العربية وفي أخواتها القديمة: كالأكديّة- البابليّة- الآشورية والكنعانية والآرامية ولغات ولهجات شبه الجزيرة العربية القديمة من سبئية ومعينية وحضرية وحبشية ولحيانية وثمودية وصفائية وكلها بالقلم المسند، بأشكاله المختلفة، وذلك في أسماء الجنس والصفات وأسماء الإشارة والموصول والضمائر والأعداد، الخ... فهي إما أن تكون مؤنثة أو مذكرة، بعكس ما نجده غالباً في اللغات الهندو-أوروبية، التي تضم المحايد إلى جانب المذكر والمؤنث. ويبدو هذا جلياً واضحاً في اللغتين اليونانية القديمة واللاتينية وكذلك في لغات حديثة كالألمانية والانكليزية (ضمير IT).

ج- تفردها بأصوات الإطباق (القاف، الصاد، الطاء، الظاء، الضاد)، ونجد الأصوات الثلاثة الأولى (ق، ص، ط) في العربية وأخواتها، بينما تعرّض حرفا (ظ، ض) للتبدل في بعضها. وقالوا إن صوت (الضاد) مقتصر على العربية الفصحى الحجازية، ومنه قولهم (العربية لغة الضاد). ونعتقد أن هذا غير صحيح. فأولاً نجد حرف (الضاد) في النقوش السبئية والحميرية على شكل (..). ليتطور إلى (.. ..) ثم (...) وأخيراً (، ،) ويمكن للراغب في الموضوع أن يطالع كتاب (مختارات من النقوش اليمنية القديمة)، في النقوش التالية (رقم النقش فالسطر) مع مراعاة الترتيب الأبجدي للمفردات: (ضأن، اسم جمع، كالعربية ٧/١٨)؛ (ضبا، بمعنى حَارَبَ، ٧/٤٠)؛ (ضرس، بمعنى طوى بالحجارة ١/١٢٠)؛ (ضرك، طوى بالحجارة ١٢/٧)؛ (ضرع، بمعنى هزم، أذل ١٨/٢، ٨/١٢، ٢٩/٧٣) ويأتي أحياناً عَرَبَ، مال، ٢/٣٤)؛ (ضفر، بمعنى ضَفَّرَ، طوى بالحجارة بئراً ١/٣٦)؛ (ضمد بمعنى دعا إلى هدنة ٥/٦) الخ... كما تأكد وجود حرف (الضاد) في النقوش الثمودية والصفائية، كما قلنا أعلاه، نقول صفائية لاجتناب اللبس مع الصفوية (نسبة إلى الدولة الفارسية الصفوية ١٥٠٢-١٧٣٦م). وعلى قول بعضهم مؤخراً وحّد حرف (الضاد) في أحد النقوش الأوجاريتية، وإضافة لهذا وذاك، نلاحظ هذا الصوت في بعض اللغات الأوروبية الحديثة.

العصور القديمة وحتى صدر الإسلام ، إضافةً إلى التشابه في الضمائر والحروف وأسماء الإشارة ... الخ. وإليك الجدول المقارن لبعض تلك اللغات:

عربي شمالي	أكدي/بابلي/آشوري	كنعاني	آرامي/سرياني	يميني/حبشي
أب	أبو	أب	أبا	أب
ابن	بنو	بن	بر	بن
أخ	أخو	أخ	أخ	أخو
إذن	إزنو	إزن	أود	أزن
أربع	اربعو	أربع	أربع	أربع
اسم	شومو	شم	شم	شم
أم	أمو	أم	أما	أم
جمل	جملو	جمل	جمل	جمل
دم	دمو	دم	دم	دم
و(حرف عطف)	و	و	و	و
زَرَع	زَرُو	زَرَع	زَرَعَا	زَرَع
يَد	أدو	يَد	أيدا	اد
كوكب	كأكبو	كوكب	كوكبا/كوخبا	كوكب
ماء	مو	مأيم	مايا	ماي
مؤت	موتو	مؤت	مؤتا	مؤت
ست (٦)	ششوا	شش	شش	بسسو
عين	أنو	عين	عينتا	عين
شمس	شششو	ششمش	ششمشا	شمس
ثلاث (٣)	شلاشو	شلوش	ثلاث	شلاس

لم نتطرق في جدولنا أعلاه إلى اللغة المصرية القديمة ، بكتابتها الهيروغليفية وأشكالها المختلفة على مرّ العصور. ونحن نعلم جيداً "النعمة الفرعونية ، التي جعلت من اللغة المصرية القديمة "كياناً" قائماً بذاته ، لا علاقة له بالأسنة ووطننا العربي البائدة منها والباقية ، لقد تزعت أركان "الفرعونية" بعد الدراسات اللغوية الحديثة. ولعلّ أفضل ماصدر في السنوات الأخيرة في هذا المجال ، دراسة الدكتور علي فهمي خشيم ، تحت عنوان (آلهة مصر العربية) (10) بحث في تاريخ وادي النيل ومعابدات قدماء المصريين واللغة المصرية القديمة ، بمنهج عربي جديد).

العربية الفصحى: انتسابها وركائنها

نقصد بالعربية الفصحى ، تلك اللهجة التي أدركناها مكتملة القواعد والبيان ، في الشعر الجاهلي ثم في القرآن الكريم والحديث الشريف ، قبل أن نأخذ لاحقاً مناحي جديدة في العصرين الأموي والعباسي ، فالعصور التالية حتى أيامنا هذه. والأمر المدهش بل المحير ، عظمة بلاغتها وبيانها وغنى مفرداتها ، بالنسبة إلى الكتابات اليمنية التي تمّ العثور عليها حتى الآن- مع غيرها من النقوش اللحيانية والنمودية والصفائية بالخط المسند ، إضافةً لتلك النقوش الشمالية ، اعتباراً من منتصف القرن الثالث للميلاد وحتى نهاية القرن السادس للميلاد ، وعلى وجه التحديد (عام ٥٦٨م) وهي محدودة العدد ، وقد عُثِرَ عليها في المنطقة النبطية ، ماعداً (نقش زيد) ، كما سنرى وإليك تسلسلها:

فمثلاً في الانكليزية ، فعل عمَل (DO, DID , DONE) ، فنلفظ (DO, DID) بحرف (د D) ، أما (DONE) فنلفظها بحرف الضاد ، هكذا (ضَنْ). وكذلك في الفرنسية ، فلو أخذنا فعل PRENDRE (أَحَدٌ) ، في المستقبل ، فنقول JE PRENDRAI (متكلم مفرد) ، فحرف (D) هنا نلفظه (د) ، أما في المتكلم الجمع ، NOUS PRENDRONS وكذلك في الغائب الجمع ILS PRENDRONT فنلفظ حرف (D) وكأنه صوت (الضاد) ، ولنأخذ حرف (ط) ، من أصوات الإطباق ، فمع أن هذا الحرف غير موجود في الأبجدية الانكليزية ، ولكننا نسمعه أحياناً ، ولنلفظ مثلاً NOT (لا) و BUT (لكن) ، فنسمع حرف (T) في الحالتين وكأنه حرف (ط) ؛ وعلى كل يختلف عن حرف (T) في TO (إلى ، نحو ، الخ....) و TO TAKE (أَحَدٌ) الخ.... ومن أصوات الإطباق أيضاً ، حرف (ق) الذي يقابل حرف (Q) في الأبجدية اللاتينية ، فتارة نسمعه بصوت (ق) وأخرى بصوت (ك).

فلنأخذ مثلاً كلمة (QUOIQUE) ، بمعنى (مع أن ، وإن ، ولو) الفرنسية ، ففي مطلع الكلمة نلفظه بصوت (ق) ، والحرف الثاني بقيمة (ك) وكذلك في الانكليزية ، وعندما يراجع المرء باب (Q) في المعاجم الفرنسية والانكليزية يعثر على أمثلة شتى مماثلة.

ومع ذلك ، فما أوضحناه أعلاه لا يلغي البند (ج) الخاص ب(أصوات الإطباق) ، والأمر ليس بهذه السهولة والبساطة. ولكن من الواضح أيضاً ، أنه ما من أبجدية عكست قديماً وحديثاً ، مختلف أصوات لغة أصحابها بشكل مطلق^(١١).

والمشكلة قائمة أيضاً ، كما نعلم ، في كتابتنا العربية منذ نشأتها وحتى يومنا هذا ، فمثلاً بالنسبة للحركات الثلاث: الضمة والفتحة والكسرة) ، المعبّرة عن الصوائت (الواو ، الألف ، الياء). فكم من صوت تعجز هذه الحركات عن سلامة نطقه ، لاسيّما في اللهجات المحليّة في مختلف ربوع وطننا العربي. ولا ندري حقاً لماذا اقتصر أسلافنا العلماء على هذه الحركات الثلاث ، مع الشدّة والسكون ، علماً أن الكتابتين: الآرامية المتطورة والسريانية فيما بعد ، قد ابتدعتا عدداً أكبر من الحركات (الكبرى ، والصغرى) المعبّرة عن أصوات تعجز أحياناً كتابتنا العربية عنها. نرانا أسرفنا في الموضوع ... ولا مجال لأكثر من ذلك في عجالتنا هذه.... ولكن الإشكال مازال قائماً وينتظر الحل على يد علماء اللغة العرب.. اليوم وغداً.

د- يأتي العدد في لغتنا العربية وأحواتها ، من ثلاثة إلى عشرة ، على عكس المعدود ، فهو مذكر مع المؤنث والعكس صحيح ، أما العددان (واحد ، واثنان) فيأتيان بموجب المعدود. فنقول : رجل واحد ، وامرأة واحدة ، رجلان اثنان ، وامرأتان اثنتان ، وثلاثة رجال ، وثلاث نساء الخ.... إلا إن كانت العشرة مركبة ، فهي على وفق المعدود. وللمقارنة مع اللغتين الآرامية والسريانية لدينا بعض المراجع المحلية الجامعية.

هـ- تضم لغتنا العربية مختلف الأصوات الحلقية (الهززة ، الحاء ، الخاء ، العين ، الغين ، الهاء) ، بينما لم تحتفظ أحواتها إلا ببعضها ، وأقلها الأكديّة التي لم تحتفظ سوى بصوتي (الهززة والحاء).

و- تشابه الضمائر المنفصلة إلى درجة كبيرة ، وكذلك طريقة ارتباط الضمائر المتصلة بالأفعال والأسماء والحروف... الخ.

ز- التشابه الكبير في المفردات الدالة على أعضاء الجسم والعدد وصلات القرابة ومختلف مرافق الحياة المألوفة لدى أسلافنا في

- (٢) وهم الأقوام الذين اكتسحوا الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط- ومنهم الفلستينيون- في القرن الثاني عشر (ق.م)، انطلاقاً من جزر بحر ايجه وكريت بل ومن صقلية وسردينية... الخ
- (٣) ظهر السومريون في المنطقة الجنوبية لبلاد الرافدين ، بدءاً من منتصف الألف الرابع (ق.م)، وقد اعتبرهم البعض سابقاً غرباء عن المنطقة وأظهرت دراسات مقارنة حديثة إمكانية تطوّرهم محلياً.
- (٤) اندحدروا إلى بلاد الرافدين عبر جبال زاغروس ، في أواخر الألف الثالث (ق.م) وساهموا في القضاء على الدولة الأكديّة.
- (٥) من أقوام أسية الصغرى ، انطلقوا من الأناضول ليقوموا بدور ملحوظ في النصف الثاني للألف الثاني (ق.م)، في البقاع الشماليّة لسورية وأحياناً في بلاد الرافدين.
- (٦) موطنهم الأصلي في أواسط جبال زاغروس ، احتلوا مدينة بابل وورثوا ممتلكاتها ودام حكمهم نحو أربعة قرون ونصف (١٥٩٥ - ١١٦٠ ق.م).
- (٧) أسس الحوريون الدولة الميتانية التي كان لها دور بارز في شمال بلاد الرافدين وسورية في القرنين السادس عشر والخامس عشر (ق.م).
- (٨) انظر ما جاء عنهم سابقاً.
- (٩) أسسوا أول دولة فارسية في منتصف القرن السادس (ق.م) ليقضي عليها الإسكندر المقدوني عام (٣٣١ ق.م).
- (١٠) في العصرين الهلنستي (السلوقي / البطلمي) والروماني / الرومي.
- (١١) يقول ابن جني في "الخصائص": "العبرة في إثبات الحرف بالنطق لا بالخط ، لوجود اللفظ قبل الخط".
- (١٢) قرية جنوبي بصرى ، عُثِرَ فيها على أنقاض بيزنطية ونبطية وعربية.
- (١٣) هو جذيمة بن مالك ، أحد أوائل ملوك الحيرة التتوخيين ، ويُعرف بالأبرش ، ينسبه الاخباريون العرب إلى العاربة الأولى.
- (١٤) موقع في حوران ، في حرة الصفا ، حيث اكتشف العالم الفرنسي (دُؤسُو) في مطلع هذا القرن نقش "امرئ القيس" وهو بالقلم النبطي المتأخر القريب من الخط العربي الباكر.
- (١٥) عندما نضيف (١٠٦) عام سقوط البتراء ، عاصمة الأنباط ، إلى ٢٢٣ (تاريخ النقش) ، نحصل على تاريخ النقش بالميلادي ، وهو ٣٢٩.



الدكتور محمد محفل في سطور:

- ولد في حلب عام ١٩٢٨. وتابع المرحلة الابتدائية والإعدادية في معهد "الإخوة المريميين Maristes Les Freres". وبعد إغلاق المعاهد الفرنسية في عام ١٩٤٥ ، تابع الدراسة الإعدادية والثانوية في مدرسة التجهيز الأولى في حلب (المأمون) وحصل على شهادة الكفاءة والبيكالورية الموحدة ١٩٤٧/١٩٤٩.
- درس في المعهد العالي للمعلمين وكلية الآداب/ قسم التاريخ عام ١٩٤٩ ونال إجازته في التاريخ ودبلوم علم النفس وعلم التربية في حزيران ١٩٥٣. ودرّس في ثانويات حلب ، ١٩٥٣/١٩٥٤.
- أوفدته وزارة المعارف السورية إلى جامعة باريس Sorbonne لتحضير الدراسات العليا وشهادة الدكتوراه في التاريخ القديم.
- منحته جامعة الدراسات الإسلامية ، باكستان درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف عام ١٩٩٩ ، تقديراً لإنتاجه العلمي.

أ- أقدم هذه الكتابات هو (نقش أم الجمال الأولى)^(١٢) نبطي اللهجة وبقلم نبطي ، منقور في حجر شاهدة قبر "فهر بن شلى) مربى جذيمة ، ملك تنوخ"^(١٣) ، ويرجع تاريخه إلى حوالي (عام ٢٥٠م) ، وهو بدء استعمال القلم النبطي عند ملوك العرب ، ويُعتَبَر هذا النقش ، على قصره ، عظيم الأهمية ، بإشارته للصلات التاريخية بين الأسر العربية الحاكمة في العراق وبلاد الشام.

ب- والوثيقة الثانية هي كتابة النمارة^(١٤) ، على قبر الملك "امرئ القيس" ويرقى إلى (عام ٢٢٣) من سقوط البتراء (سُلع) والموافقة لعام ٣٢٩ للميلاد^(١٥) ويتألف النقش من خمسة سطور منقوشة على صرح مربع ، وهي بالقلم النبطي وبلغة آرامية/ عربية ويغلب عليها تراكيب الجملة العربية ، وتكمن أهمية النقش في أنه أقدم نص مكتوب بلهجة قوم لسانهم قريب من لهجة أهل الحجاز.

ج- والوثيقة الثالثة هي كتابة "زَبْد" وهي خربة ، تقع جنوبي- شرقي حلب ، ويرجع تاريخه لعام (٥١٢م) ويتكوّن النقش من كتابات بثلاث لغات: يونانية وسريانية وعربية قديمة. وقد نُقِشت الكتابات على حجر كائن في صرح الكنيسة.

د- أما النص الرابع ، فهو الشهير بنقش "حران" ، (الصفا ، في اللجاة ، شمالي جبل العرب) ، وتاريخه هو عام (٥٦٨م). وهو منقور في حجر فوق باب مزار ، وأغلب الظن أنه يعود لأحد أمراء كنده ، الذي أشار على حاشيته به ، بمناسبة تدشين مزار (مشهد/ مرطور) تكريماً للشهيد القديس "يوحنا المعمدان". وتتمتاز هذه الوثيقة بكون لهجتها قريبة إلى درجة كبيرة من العربية الحجازية ، ولاسيما لهجة قريش. كما أن الخط يقترب كثيراً من النسخي القديم. واعتباراً من هذا النص ، راحت الكتابة العربية الشمالية (الحجازية) تبتعد تدريجياً عن القلم النبطي.

تزداد حيرتنا أكثر فأكثر ، عندما نقيس ركاكة أسلوب محتوى النقوش ، التي أشرنا إليها أعلاه ، ببلاغة سحر الشعر الجاهلي وجزالته فالقرآن الكريم. مما لاشك فيه ، أن تلك الكتابات الوجيزة لا تعكس بالضرورة حقيقة لغة التخاطب اليومي ، وبالأحرى ، ماهية الخطاب الأدبي. لسكان شبه جزيرة العرب ، ولاسيما في ربوعها الوسطى والشمالية (نجد ، الحجاز ، بلاط الحيرة ، بادية الشام الخ...).

ومع ذلك ، يظلّ ذلك الموضوع المُلح ، الذي شغل بال علمائنا السابقين والباحثين المحدثين ، من عرب وغيرهم ، قائماً وبلا جوابٍ مقنع حاسم ، حتى يومنا هذا ، وعيننا بذلك: أين ومتى تمّت تلك "الطفرة النوعية ، اللغوية لعربيتنا الفصحى ، التي أدركناها في بلاغة وبيان الشعر الجاهلي ثم في الإعجاز القرآني فجزالة الحديث الشريف؟!..

الهوامش

- (١) نغني بهم أولئك الجماعات الذين هاجموا سواحل الدلتا المصرية ، وبعد فشلهم توجهوا نحو الساحل الكنعاني الأدنى/ الفلسطيني ، حيث استقروا على الشريط الساحلي الممتد من يافا حتى غزة وأسسوا عدة مدن منها اشدود وعسقلان. واسمهم في المراجع الانكليزية حالياً palestinian وهم غير "الفلسطينيين palestinian"